

الفصل الحادي عشر

التربية الأوروبية في العصور الوسطى

... وكان أن دب الفساد في أوصال الإمبراطورية الرومانية ، وقامت القسطنطينية تتحدى روما المتداعية ، وانتقلت إليها السلطة شاطرة الإمبراطورية شطرين منذ القرن الرابع الميلادي . وفي غضون هذا القرن كانت القبائل الجرمانية الآتية من الشمال قد استوطنت أجزاء مختلفة من البلاد ، وكانوا يدخلونها إما باعتبارهم أسرى حرب أو عمالا في الأرض أو للخدمة في الجيش . على أن تزايد عدد الجرمان أتاح لهم الفرصة لتكوين دويلات خاصة بهم .

وقد تولى جستنيان عرش بيزنطة (٢٥٧ - ٥٦٥ م) ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وحاول استعادة أملاك الإمبراطورية في الغرب ، فسير جيوشه في شمال أفريقيا محارباً قبائل الفندل واحتل عاصمتهم قرطاجنة ودمر مملكتهم ، وكان ذلك عام ٥٣٣ م ، ثم أرسل إلى حكام روما ، وهم من القوط الشرقيين ، يطلب منهم الاعتراف بسلطانه ، وترك الكنيسة وشأنها ، وتقديم ثلاثة آلاف قوطي ليخدموا في جيشه ودفع جزية له ... الخ . ومع انتصار الشرق إلا أن الأمور عادت إلى الفوضى وعم الفقر إيطاليا وانتشر فيها الجهل ، خاصة وأن اللومباردين والفرنجة كانوا يغزون الأراضي الإيطالية من الشمال . وتقاسم السلطان السياسي في إيطاليا خلال القرنين السابع والثامن ملوك الفرنجة والبابوية والإمبراطورية الرومانية الشرقية واللومبارد وغيرهم . ثم بدأت السيادة السياسية تتحرك شمالاً إلى الممالك الفرنجية فيما يطلق عليه اليوم فرنسا وألمانيا . تم اتحدت بعض الممالك الفرنجية تحت زعامات موحدة ، ولعل أشهر الزعماء كان كلوفيس : وقد انسلخت السلطة أحياناً كثيرة إلى كبار

رجال القصور ، ويذكر التاريخ أن شارل مارتل (شارل المطرقة) كان أحدهم وهو الذى هزم العرب في محاولتهم السير من أسبانيا براً إلى القسطنطينية وكان ذلك في موقعة تور في جنوب فرنسا عام ٧٢٢ م . وخلف مارتل ابنه بن القصير الذى لبي دعوة البابا لإنقاذه من الحركات الفكرية الهدامة الآتية شرقاً من اليونان واللومبارد النازحين من الشمال . ومكافأة لبن فقد عينه البابا ملكاً على الفرنجة . كما منح بن البابا شريطاً من الأرض في وسط إيطاليا أصبح فيما بعد الدويلات البابوية .

ثم خلف بن ابنه شارلمان الذى أصبح ملك الفرنجة والذى خرج ليوسع حدود مملكته شرقاً إلى نهر الألب وشمالاً إلى بحر الشمال وجنوباً إلى البحر المتوسط . وفي يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ توج البابا شارلمان إمبراطوراً رومانياً وأصبح شارلمان الخليفة الشرعى لأباطرة الرومان الأقدمين . وقد عول شارلمان حينئذ على أن يستعيد للإمبراطورية القديمة مجدها . وكانت لشارلمان صلوات ودية مع خلفاء المسلمين وتبادل معهم الهدايا ، كما أنه أرسل مبعوثيه ليستمعوا إلى شكاوى وطلبات رعاياه مما أضفى على عهده سمات التقدم في الزراعة والتعليم .

وبعد موت شارلمان بدأ الصراع بين رجالات الدولة والكنيسة وداخل أسرته للسيطرة على مقاليد الأمور ، وتمخض الصراع بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية عن تقسيم الإمبراطورية إلى ثلاثة أجزاء كبيرة يمكن أن نتصور حدودها اليوم في فرنسا وألمانيا وإيطاليا . وقد أدى هذا الانقسام إلى ضعف بدأ يسود الإمبراطورية وإلى نمو تدريجى للاستقراطات المحلية ، والنبلاء ، ورجال الكنيسة ومللاك الأرض من الحكام .

بل إن الوهن تطرق أكثر في الإمبراطورية التى تقسمت عندما جاءها غزاة من الشمال - الفايكنج - مكتسحين الأرض الأسكندنافية . كما غزا اللدانماركيون الجزائر البريطانية ، وانتشر النورمان في نورمانديا وصقلية وإيطاليا ، ودخل السويديون أرض روسيا . وهاجم السلافيون والمياجبار

الإمبراطورية من الشرق . كما أن العرب جاءوا بجرأ وبرأ من الجنوب محتلين جزراً في البحر المتوسط وأجزاء من جنوب إيطاليا وفرنسا كما احتلوا أسبانيا . وعم الإمبراطورية فزع وخوف ، فلا قانون ولا قوة تحمي الأهالي ، ولكن كان كل هذا داعياً لأن تبلور وتتمركز السلطة في يد رجال أقوىاء كل في منطقة يملك أرضها ويحتمي بقلعة حصينة ، ويلتف حوله من يقبلون الحرب معه . وأصبح أمراء الإقطاع هم أصحاب السلطة الحقيقية القادرين على صد هجوم (الأعداء) ، ولكن كان هنالك ملوك يمارسون سلطة إسمية .

وتتميز الفترة بعد تفتت إمبراطورية شارلمان في القرن التاسع بصراعات بين الملوك بعضهم البعض وبين الملوك والنبل ، فالملوك يريدون لأنفسهم سطوة أكثر . واستطاع أوتو الأول عام ٩٥٢ م أن يقتحم إيطاليا غازياً ويعلن نفسه على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولعل وصف الإمبراطورية بأنها مقدسة يظهر أثر الدين في المسائل السياسية .

وظلت الصراعات قائمة على الأراضي شمالى غربى إيطاليا ، ثم استقرت الأمور بعض الشيء في فرنسا التي تكونت فيها مجموعة من اللدوقيات والمقاطعات والقرى الإقطاعية ، ولم يكن للملوك سلطان يذكر عليها . أما في الجزر البريطانية فقد استطاع وليام الفاتح على رأس النورمان عام ١٠٦٦ م هزيمة الساكسون والدانمركيين . ومن ثم بدأ يخطط وليام بانجلترا خطوات حقيقية نحو الوحدة .

وبينما هذه الأحداث تجرى في إنجلترا في الجزء الأول من العصور الوسطى (من القرن السادس إلى الحادى عشر الميلادى) . كان العرب قد كونوا إمبراطوريتهم المترامية من المحيط الأطلسى إلى الهند . وفي القرن للتاسع بدأت الإمبراطورية العربية تتفتت وتستقل أجزاء منها ، وتتنازع فيما بينها (١) . ثم نأتى إلى القسم المتأخر من العصور الوسطى (ويشمل الفترة من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر الميلادى) . ومن منتصف القرن الحادى عشر

إلى نهاية الثالث عشر كانت المحاولات تبذل لمركزة القوة السياسية في إنجلترا وفرنسا ، أما ألمانيا وإيطاليا فظل الصراع محتدماً بين الأباطرة والنبل في جانب ، والأباطرة والبابوية في جانب آخر . فيذكر التاريخ صراعاً نشب بين هنري الرابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبين نيقولا الثاني والبابا جريجورى السابع . وفي القرن الثاني عشر اشتد الصراع بين فردريك بارباروسا والبابا ، وبين المدن المستقلة في شمالي إيطاليا كذلك . وقد تحالفت هذه المدن وانتزعت من بارباروسا حق الحكم الذاتي عام ١١٨٣ .

وفي سنة ١١٨٧ كانت الحرب مشتدة بين العرب والصليبيين ، وفيها انتصر صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين واسترجع القدس . وجن جنون أوروبا وقامت حركة ترمي إلى استرجاع بيت المقدس وأخذ ملوك أوروبا في الاستعداد للزحف بحملة كبيرة إلى الأراضي المقدسة . وقد اشترك فردريك في هذه الحملة وكانت ثالث حملات الصليبيين ، ولكنه غرق وهو يجتاز نهراً في آسيا الصغرى ، في طريقه إلى تحرير الأراضي المقدسة . وقد أثر وجود الصليبيين في أرض العرب ، وحملاتهم المتكررة عليها على التفكير الأوروبي وعلى المجتمع هناك مما سيظهر في معرض الحديث عن التربية على هذه الأرض في ذلك العصر .

وعود إلى ما كان يجري في أوروبا في غضون الشطر المتأخر من العصور الوسطى الذي امتد من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر كما سبق أن بينت . ويذكر أن البابا أنوسنت الثالث تولى شئون البابوية عام ١١٩٨ م ، وجعل سلطة البابوية الزمنية فوق كل سلطة مهما كان نوعها ، وكان أنوسنت سيد روما ، مقوياً نفوذه في أواسط إيطاليا ومتدخلاً في شئون الانتخابات الإمبراطورية ، بل إنه فرض نفوذه السياسى على يوحنا ملك إنجلترا والفونس ملك ليون ، وصادق ملك فرنسا وتدخل في شئون هنغاريا ، ونصح ملوك آخرين . . وبالاختصار فقد أصبح للبابا نفوذ في كل أوروبا . ولكن البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ م) اختصم مع فيليب ملك فرنسا ،

فقد منع فيليب رجال الدين من المحاكمات ، وفرض عليهم الضرائب ، ثم منع الأجانب جميعهم من دخول فرنسا . . . فأصدر البابا عام ١٣٠٢ م بياناً قال فيه إن خضوع كل فرد لأسقف روما (وهو البابا) أمر لازم للخلاص الروحي . ورد عليه فيليب موجهاً إليه عدداً من التهم ومطالباً بأن يحاكم على يد مجمع كنسي ، بل أرسل جيشاً للقبض عليه ، وقد أثر عليه الموقف فات ، وتقلصت السلطة الهائلة التي كانت في يد البابوية .

أما ما كان يحدث في ربوع أوروبا وقت القوة البابوية في القرن الثالث عشر ، فإن مملكتي فرنسا وإنجلترا أخذتا بأسلوب الحكم الملكي المركزي القوي ، وأصبح للسكان حكومة واحدة تسمى لخيرهم ، كما ظهرت أسبانيا كدولة قوية بعد تقلص النفوذ العربي ، ووقفت البرتغال كدولة جديدة . وإذا تركنا الجانب السياسي لننظر في أحوال الأوروبيين فيما بين القرنين السادس ونهاية الثالث عشر الميلاديين ، فنجد :

أولاً : شيوع الإقطاع : ويذكر المؤرخون (١) أن القرنين التاسع والعاشر أسبغا على أوروبا ظلمة حالكة أشد من أيام الإغارات الجرمانية العظمى التي ساعدت على هدم الدولة الرومانية ، وفي خلال هذين القرنين أخذ النظام الإقطاعي ينمو باطراد . وقد مهدت له حركة التطور العام نحو المحلّة أكدها خلفاء شارلمان بشخصياتهم الضعيفة . حتى إذا جاء القرنان الحادي عشر والثاني عشر لم تكن هناك حكومات مركزية ، ونحو ولاء الجماعات إلى السادة المحليين ممن تأسست على أيديهم أسرات إقطاعية كبرى ، ترجع أصولها في معظم الأحوال إلى القرن العاشر الميلادي . بل أصبح امتلاك الأرض مقترناً بحق امتلاك نواصي الحكم والسلطان ، وامتلاك الأرض يعني امتلاك من عليها وما عليها . وأصبحت الأرض والسلطة مترجحين بعضهما ببعض . ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة تقوم على عدد من التعهدات والالتزامات متبادلة بين الطرفين

(١) كوبلاندي ، ج . ر . (ترجمة محمد مصطفي زيادة) : الإقطاع والمصور الوسطى

وكان هناك السيد الكبير وقد يكون الملك أو لورداً وهو مسيطر على مجموعة من البارونات ، يمنح كلا منهم أرضاً في مقابل أن يؤدي البارون لسيدته خدمات حربية معينة (١) ويتعهد بالمثل أمام محكمته الخاصة للفصل في قضايا التابعين . والبارون بموجب النظام الإقطاعي هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضي ومن عليها من السكان . وكان من أهم واجبات البارون الحرب سواء كان ذلك تحت راية سيده في حملة صليبية أو احتكاماً إلى السيف في مبارزة قضائية لإثبات براءته من تهمة الخيانة أو الإجمام ، أو دخولا في حلف إقطاعي ضد الملك أو الإمبراطور ، أو مساعدة للكنيسة في إخماد حركة من حركات المهرطقة التي يقوم بها المارقون عليها . والصورة الماثلة في أذهاننا عن الفارس الإقطاعي ذلك الشجاع على ظهر حصان قادر على الحركات الحربية الحافظة بفضل استعمال الركاب في سرج الخيل ، ثم الملابس المدرعة ، وحفلات المبارزة مع نبيل في الأخلاق .

وكان البارون يسكن قصرأ هو حصنه ، فقد يحدث أن يكون سيده مشغولاً عنه في حرب بعيدة ، فلا بد للبارون من قلعة تحميه ، ويعيش فيها مؤدياً واجباته الحربية ، ثم الإدارية والسياسية التي التبت عليه فيما بعد . أما عن الأهالي والعامّة فقد كانوا يعيشون في مرحلة بين الحرية والرق . وهي الحالة التي عرفت باسم القنية serfdorm في العصور الوسطى ، والقرن فلاح يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده متملك الدومين . وهو مربوط إلى هذه الأرض ، ولا يملك الحرية في الانتقال عنها ، ولا يتزوج من جهة خارج الدومين التابع له إلا باذن من سيده . . ويدفع القرن لمتبوعه مبالغ معينة كلما رزق مولوداً أو مات له ميت ، وفي مناسبات أخرى كثيرة . والقرن ملك لسيدته له حق بيعه واستبداله . وينشأ أبناء القرن كأبيهم يخدمون سادتهم الذين يمتلكونهم ولا يستطيع فرد أن يسمو إلى طبقة أعلى . ولم تكن هناك إلا طبقة الأرستوقراطيين (النبلاء وكبار رجال الدين) وطبقة

الكادحين في الأرض . وبازدهار التجارة وظهور المدن بدأت الطبقة الوسطى تولد . وتقف بين الطبقتين ، فهي خير من الطبقة الدنيا ، وأقل من الطبقة العليسا .

ثانياً : ظهور المدن : بقيام جماعة التجار وتكتلهم معاً للقيام بأعمالهم مجتمعين وإنشاء أماكن مستقلة عن قلعة البارون أو النبيل بدأت تتكون طبقة تسكن (الضواحي) على مقربة من القلاع الكبيرة أو في حى دبر كبير ، على أن تكون على طريق رئيسى ييسر نقل البضائع . وكانت هذه الضواحي بداية ظهور المدن في أوروبا . على أن قيام أية مدينة كان يتطلب منحها (براءة) يصدرها الملك أو النبيل أو الأسقف ، ويعين في البراءة السكان ورعويتهم وإدارة المدينة والامتيازات التي تمنح لها . وكان سكانها غالباً من البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) وهم من التجار والصناع المتحررين من ربقة الفئدة الإقطاعية . ولم يكن لكل سكان المدن الحق في الاشتراك في إدارة المدينة واختيار مجالسها . ومن أهم مهام المجالس حماية المدن بإقامة الأسوار والقلاع وحفر الخنادق .

ثالثاً : التجارة : يرجع الفضل للحروب الصليبية في توسيع مدى التعامل التجاري بين أوروبا والشرق . كما أن التجارة في أوروبا ذاتها بدأت تثير اهتمام الملوك والأمراء للعمل على تحسين الطرق وإقامة الجسور على الأنهار ، لما في ذلك من فوائد تزيد ما يدخل خزائهم من ذهب . كما وضعت القوانين لحماية التجار من اللصوص والقراصنة ، وظهرت التحسينات في بناء السفن ليزيد حجمها فتحمل أكثر . وكانت أوروبا تستورد من بلدان الشرق العربي التوابل والبرتنقال والمشمش والتين والزبيب والعقاقير والأصباغ والأقطان والخزير الحام والمشغول مثل أقمشة الدمشق (دمشق) والموصلين (الموصل) والبلدشيين (بغداد) والشاش (غزة) . وكانت أوروبا تصدر للشرق العربي الخشب والسلاح والأصواف وأدوات زراعية وخزف . الخ .

رابعاً : الثنابات : كان الإنتاج الصناعي الذي بدأ ينمو في أوروبا

بحاجة إلى من ينظمه ويحميه . وقد أخذ الصناع منذ أن بدأت قيمهم في مجتمع المدينة تقوى بإنشاء جماعات (طوائف) صناعية تهتم بشؤونهم . وكان بعضها يقوم على أساس ديني ثم تطور إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، فظهرت النقابات الصناعية والتجارية في أكثر المدن الأوربية (١) .

وكان أعضاء النقابة ثلاثة أقسام على أساس درجة العضو في اتقان الصناعة : التلميذ - الأجير - المعلم ، وكان يدفع رسوماً قبل أن يصبح عضواً ، وكان يسكن بيت المعلم ويأكل كل عنده : ويخضع لرقابة معلمه الصارمة الشديدة : وتراوح مدة التلمذة بين سنتين وسبع سنوات على حسب الصناعة . ثم يصبح التلميذ أجيراً ، ثم إذا أثبت تفوقاً وشهد له بذلك فتح مصنعاً .

وكانت هناك نقابات للتجار ، هدفها حماية أعضائها ضد النبلاء وتأمين معاملة عادلة في الأسواق البعيدة ، والتأكد من مراعاة القوانين التجارية داخل المدينة ذاتها . وكثيراً ما كانت نقابات الصناع تتعاون مع نقابات التجار في تنظيم الناحية الاقتصادية

خامساً : الحياة الدينية : تركزت الحياة الدينية في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى حول محورين : الأول هو البابوية باعتبار أنها الرياسة العليا للكنيسة ، والثاني التنظيمات الكهنوتية ، وقد سبق أن ألمحت إلى حقائق عن الصراعات البابوية وبعض الملوك ، ورغبة في سيطرة بابوية دينية على النواحي السياسية . وهما من المحور الثاني الرهبنة وأنظمتها المختلفة . ونتكلم عن أنظمة مختلفة للرهبنة ، فعندما كان يتطور الحياة الروحية فتور كان يعيد إليها الحيوية نظام رهبنة جديد . بل اتخذ النشاط الروحي أحياناً مزيجاً من الرهبنة والعمل العسكري كما وجد في الفرق الدينية الثلاث وهي : الهيكليون ، وفرسان المستشفى ، وفرسان التوتون . كما حاولت الكنيسة برجالها ورهبانها

(١) من أهم المدن : البندقية (١٩٠ ألف نسمة) - لندن (٤٦ ألف نسمة) - بروكسل (٤٠ ألفاً) - ستراسبورج (٢٦ ألفاً) ثم ميلان وجنوة وفلورنسا ، وكان يسكن كل منها حوالي مائة ألف نسمة .

أن تخفف من ويلات الصراعات التي استمرت أجيالا طويلة للتنازع على السلطة إبان العصر الاقطاعي . فقام رجالها منظمين السلم الأهلي وفرض الهندنة لأهلية وفيها يمنع القتال في أيام معينة . وكانت محاولاتلم يكتب لها نجاح كبير .. وقد انتشرت (الهرطقة) في أوروبا . وقد تمركزت حول محاربة الاتجاهات الدنيوية للكنيسة وسلطات رجال الدين المتزايدة . ومن جماعات الهرطقة الألبينيون نسبة إلى مدينة Albi في جنوب فرنسا ، وقد رأوا أنفسهم مطهرين Cathari (ويسمون أيضاً الكاثاريون) في دعوتهم للاحتجاج على فساد الكنيسة ورجال الدين . وأكّدوا أن الرغبة في الأمور المادية خطيئة ، لأن المادة شر ، وعلى ذلك فامتلاك الثروات والكذب وشن الحروب تعتبر من الخطايا .

كما احتج على الكنيسة الأونولديون بزعامة أرنولد بريسكا ، وهاجموا جشع البابوات وتمكك التساوسة للسلطة وتدخّلمهم في الشؤون الدنيوية ، وقاموا بتمجيد قيم الفقر والحياة البسيطة . والوالدونيون جماعة محتجة أخرى ، وهي تنسب لبير والذو Waldo ، وقالوا إن الطاعة واجبة للبابا ورجال الدين إذا كانوا أهلا لذلك ، وتجب الطاعة أولا لله ، وقالوا إن الصلوات وتوزيع الصدقات على أرواح الموتى لا فائدة منها ، وأن الصلاة والعبادة خارج الكنائس صالحة كداخلها .

وغير هؤلاء من الهرطقة الذين شكوا فيما لدى رجال الدين من سلطات وتساءوا عنها . واحتجوا عليها ، وطالبوا تغييرها ... وكانت بدايات التفكير الحر .

التربية في العصور الوسطى في أوروبا

- يمكن تلخيص المثل العليا المسيحية في العصور الوسطى بأنها أكدت :
- (١) القيمة الكبرى للمسائل الروحية .
 - (٢) الاهتمام بالحياة الآخرة .
 - (٣) التساوى الروحي للخلق أمام الله .

(٤) شرف العمل وتطبيق مبادئ العدالة في العلاقات بين الأفراد العاملين .

(٥) وحدة كل البشر .

(٦) أن أول واجبات الفرد خدمة ربه وزملائه ونفسه .

ولكن الواقع العملي في تلك العصور لم يسم إلى هذه المثل . بل لقد طغت على العقل الخرافات والبدع والأوهام ، وكان العقل يخافها جميعاً . فما زالت فيه آثار من وثنية طمرها التاريخ . كان العقل يميل ناحية الجماعة فيلفظ المارقين على التعاليم الكنسية المتفوق عليها . كما كان عقلاً شغوفاً بالعالم الآخر ، فتطلع من الأرض إلى السماء ، ومن المحدود إلى اللانهائي ومن المؤقت إلى الخالد . ولكن بدأ يتغير بتأثير نمو التجارة وظهور البورجوازية والحروب الصليبية واحتكاك الأوروبيين بثقافات العرب وغيرهم .

وكان هدف التربية في العصور الوسطى مشتقاً من الظروف الاجتماعية فهدفت إلى خدمة الرب والكنيسة والخلق والنفس . وهذا يكون للتربية غرض مزدوج مؤكداً على مطالب الكنيسة ومطالب الحياة ، ومع ذلك فان المدارس ، عدا الجامعات ، منحت تربية عامة ذات طابع أدبي ديني . وفيما يلي عرض سريع لجوانب هذه التربية .

أولاً : حركة إحياء العلوم في عصر شارلمان الذي أسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م . وقد حاول ، ونجح في محاولته ، أن ينقل الثقافة الرومانية ويوفق بينها وبين ثقافات جماعات البرابرة الذين اعتنقوا المسيحية ، ورمى من محاولته إلى تكوين وحدة داخلية ثقافية تربط بين سكان إمبراطوريته . وقد اعتمد شارلمان في محاولته على كثيرين من رهبان الأديرة ومنهم الكوين Alcuin .

كما أصدر شارلمان في عام ٧٨٧ م أوامراً إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها يلومهم فيها على استخدام الألفاظ الخشنة و « الألسنة غير المهذبة » (١)

(١) وهيب ابراهيم سمان : الثقافة و التربية في العصور الوسطى ، ص : ١٧٥

كما حث كل كنيسة على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين وغيرهم الكتابة والقراءة. وحرص على أن يساوى في التعليم بين القنة والأحرار ، كما أدرج في هذه المدارس تعليماً طيباً للتنديد بما كان شائعاً من خرافات وأوهام . وكان يدرس بهذه المدارس الحساب والنحو والمزامير والموسيقى والغناء .

ومن أشهر المربين في القرن الثامن الميلادي الكوين Alcuin (٧٣٥-٨٠٤ م) الذي رأس دير Tours وجعل منه مركزاً للثقافة العلمية في فرنسا . ومن رأى الكوين رفضاً دراسة الآداب القديمة مع عناية خاصة اهتم بها في المظهر الصوفي . وقد اهتم الكوين بدراسة الفنون العقلية الحرة السبعة (هي الحساب ، والهندسة ، والفلك ، والتناسق الموسيقي ، والمنطق ، والبيان ، والفلسفة) ، وكان يقول يجعلها أساساً للتعليم ، لأنها الأساطين التي قام عليها معبد الحكمة .

ثانياً : التصوف ، وكان للتصوف علاقة كبيرة بالأديرة ، ولذا كان المتصوفون من الرهبان . وقيمة التصوف في تاريخ التربية قليلة ، ولكن هذا لا يمنع من معرفة شيء عنه فقد أثر في نظام تربية المتصوفين أنفسهم . وقد احتك بعضهم أحياناً بغيرهم .

وهدف المتصوف الأسمى من الحياة الوصول إلى الكمال الروحي والعلمي ولنصل إلى هذا الهدف كان عليه أن يهمل كل ما يأتي عن طروق الحواس ، فيعزل الفرد عن هذا العالم منكشفاً في نفسه حتى تفنى شخصيته في عالم الأرواح وتندمج في اللانهائية ، فيرى المتصوف ما لا نراه وتتكشف له العجائب ويعرف الأسرار الباطنية . والتصوف كأسلوب تدين هو أوسع التجارب الروحية ، وكأسلوب فلسفة هو أشدها توغلا في المعنوية المثالية المجردة ، وكأسلوب للتربية هو غاية الكفرة التهذيبية .

وقد عرف التصوف عند البوذيين والبرهمنيين والفارسيين والمسلمين ، وإن كان عند الآخرين له أهمية أقل .

أما عن تربية المتصوفين فقد اهتمت بقيمة التفكير وأثره في تنمية العقل (٢١٠ م - تطور الفكر)

من الناحية التأملية . وتؤمن هذه التربية بإيمان المتصوفين بثلاثية طبيعية الروح ، فلها جزء حيواني مرتبط بالجسم ، وجزء مفكر هو مظهرها الإنساني ، ثم جزء روحاني يرتفع عن مستوى الإنسانية حيث يلتقي الإنسان بامعقل الأسمى أى المعقل المقدس . ويمكن أن نفهم الله وأن نصل إلى اللانهاية الحقيقية عن طريق التحليل والتجريد - عن طريق إهمال جميع المؤثرات الحسية والإنغماس في أفكار الإنسان الذاتية (١) .

وكانت أول مراحل التربية الصوفية تلك التي يعمل فيها الفرد على التخلص من كل ما من شأنه أن يحجب عنه رؤية الكائن المقدس ، ومن المؤثرات الحسية ، ومن الملذات المادية والمتع العالمية ، فالفرد في هذه المرحلة يجاهد ضد الحياة الخارجية . ثم يصل الفرد إلى المرحلة الثانية ، وهي مرحلة إضاءة الحياة وتنويرها فيقوم المتصوف بالأعمال الطيبة من تلقاء نفسه ، وهو هنا يجاهد داخلياً . أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الاتحاد والحياة .

ثالثاً : الفروسية : ارتبطت الفروسية بالمثل العليا الاجتماعية الراقية . وميزتها في الحياة الدنيوية كمنزلة الرهبة في الحياة الدينية ، والأصل في الفروسية عمل اجتماعي أقرته الكنيسة وعهد به إلى الفرسان الذين أهلهم قدراتهم ومكانتهم المادية من ميدان العون لغيرهم . ولكن يصبح الفرد فارساً ، يخضع لنظام تربوي قوامه الأعمال البطولية والتهذيب ، فالفارس فرد مطيع مستقيم متعاون . وطبيعي أن هذه التربية اقتصرت على طبقة معينة من الأحرار الأثرياء القادرين على القيام بمهام الفارس . وقد سارت الفروسية جنباً إلى جنب مع الإقطاع مكرّنة كياناً خاصاً داخل المجتمع ومحتلة مكانة سامية فيه .

والفارس سيد بمعنى الكلمة ، فوعده مقدس وشجاعته لا يتطرق إليها شك ، ويمجد النصر الحربي ، ومع هذا فقد كانت له أحياناً نزوات من الغضب الجارف . وقد أعطت الفروسية لمجتمع القرون الوسطى مثلاً علياً في معنى الطاعة واحترام النظام والذات والخدمة . وقد تأثرت في هذا بتعاليم

(١) منرو : للرجع الأسبق ، ص : ٢٨٠ - ٢٨١

الكنيسة التي علمتهم كيف يحترمون الضعفاء ويندفعون للدفاع عنهم . ومع ذلك فأحياناً كان الغضب يدفع الفارس إلى سرعة سفك الدماء ، بل وقد يكون ذلك على حساب الضعفاء ..

وتقسم تربية الفارس إلى مرحلتين ، مرحلة تربية الغلام وهي من سن السابعة إلى الرابعة عشرة ، ثم مرحلة البالغ إلى سن الحادية والعشرين : وفي المرحلة الأولى كان الغلام يقوم بالخدمة في إحدى القلاع وخاصة خدمة السيدات ، ثم يخدم على الموائد بعد أت يكبر ، ثم يقدم في مرحلة البلوغ عدداً من الخدمات لسيدته ، ثم يصبح الخادم الشخص المباشر للفارس في المعركة والحفلات العامة . وكان أهم ما يتعلمه الشاب الحب والدين والحرب ، فيتعلم كيف يرق ويتعطف ويتلطف ويتخير أنسب الكلام وأعذبه ؛ ويقترض الشعر والغزف على آلة موسيقية هي القيثارة مع الترنم بأغنية جميلة . ويتعلم كيف لعب الشطرنج ويسلى النساء ويبعث السرور والمرح إلى الأفتدة .. هذا إلى جانب ركوب الخيل والمبارزة وفنون القتال المختلفة والصيد بأنواعه ، وتعليم ديني يلف كل هذا بطبقة حامية مانعة من الوقوع في الرذيلة ، بل كان يقوم بطقوس دينية للتطهير ، ويجب عليه أن يبارك سيفه على يد قسيس . ثم يقسم الفارس في حفل كنسي على الدفاع عن الكنيسة والنساء والفقراء . أما تربيته العقلية فكانت ضحلة اللهم إلا من تعلم الفرنسية وكانت لغة الفروسية في العصور المتأخرة من القرون الوسطى .

رابعاً : الرهينة والديرية : تنوعت الرهينة في المسيحية فهناك الراهب المتبتل في خشوع الذي يتخذ له مأوى وسكناً بعيداً عن العمران كالصحراء مثلاً ، وعرفت العصور الوسطى أيضاً الراهب الجوال الساعي في الأرض ملتصقاً بحياة دينية صارمة . وهناك أيضاً المتصوف الزاهد في صومعته ، ثم اليسوعي العبقري الذي يعمل في المدرسة . وفي الفترة بين القرنين السادس والثالث عشر لم يكن هناك من المؤسسات التربوية ما يحمل لواء النواحي العقلية سوى المدارس الكاتبة التي كان يدرس بها جماعات الرهبان .

ولا يتبادر إلى الذهن أن الرهينة من اختراع المسيحيين فقد عرفها المصريون القدماء والفرس واليهود والإغريق ، وكانت ترمى إلى الوصول بالروح لأسمى درجات الكمال والزهد في ماديات الحياة الدنيا بكبح النفس عن الشهوات والصيام والتعذيب والنشاط البدني المستمر والنظر إلى المطالب الدنيوية نظرة ازدراء . وقد وجد مبدأ التصوف في تعاليم المسيح أكبر مشجع لها ، تلك التعاليم القاضية بالألا يفكر الإنسان في غده وأن يبيع ما يملك ويعطى الفقير ، وأن يترك المرء أباه وأمه وزوجته وأولاده في سبيل الله . وكذلك في نصائح السيد المسيح المتكررة القاضية بأن يحقر الإنسان من أمر الدنيا ، ويكرس حياته لخدمة الإنجيل ونشر تعاليمه (١) . ومما يساعد على الرهينة وتطورها ما أصاب المسيحية من اضطهاد في سنيها الأولى مما أدى ببعض المتحمسين إلى الاعتصام بالجبال والكهوف ووحشة الصحراء في انتظار عودة المسيح ثانية . ويذكر أن أنطونيوس كان أول من اعتصم بالصحراء على شاطئ البحر الأحمر عام ٣٠٥ م ثم تبعه في أسلوب حياته الحشنة المتزهدة عدد كبير من المتدينين ، ثم تكونت جماعات احترقت الدنس في بعض المجتمعات وأثرت الانسحاب إلى حياة قوامها الطهرا والعفة والزهد والعبادة والطاعة وعاشوا في أديرة .

واتسمت الحياة الديرية بالتهذيب والعمل والتدريب ، فثلا أديرة بندكت كانت تحدد يومياً سبع ساعات للعمل اليدوي أو الأدبي ، ومن ساعتين إلى خمس ساعات للقراءة . وبذلك أتاحت الفرصة للدراسة داخل جدران بعض الأديرة ، لا يشغل الراهب عن التدين والتحصيل شاغل ، خاصة أن بعض الأديرة حفظت الكتب في خزائنها ، وكان هناك متسع من الوقت لعمليات النسخ والكتابة . بل إن القوانين الديرية كانت تحتم على كل راهب تعلم الكتابة والقراءة . وأختلفت الأديرة فيما كان يدور داخلها من تعليم وتحصيل ، فقد ازدهرت الدراسة في بعضها بينما أقفرت في بعضها الآخر الذي لم يكن فيه أكثر من عدة نسخ لكتاب واحد . ويلوح أن الغالبية كانت من النوع الأخير

(١) منرو : المرجع الأسبق ، ص : ٢٤٤

والذى ارتأى فى الدراسات الأدبية القديمة التى حرمها الكنيسة مغريات وأمر
دنيوية تتعارض مع حياة النسك والتشف ، أضف إلى ذلك تعدد المذاهب
المسيحية ، حتى فى ذلك الوقت المبكر من المسيحية حيث بلغ عددها أيام
القديس أوغسطين ٨٥ مذهباً

وعرف التعليم فى داخل الأديرة على نطاق ضيق ضئيل ، فهو يتضمن
القراءة والكتابة والغناء وحساب التويم الكنسى ، وكان ذلك وفقاً على عدد
قليل ممن سينخرطون فى سلك الرهبنة التى لم تقبل سناً أقل من ١٨ سنة ، ثم
يدرس الطالب سنتين . أما قبل ذلك السن فلم يكن هناك تعليم يذكر . ويذكر
أن شارلمان أعنى بمدارس الأديرة بمساعدة الكوين وزيره ، فطورها حتى
لا تقتصر على مجرد الأعداد للحياة الديرية فقط . وعلى العموم فإن الأديرة
استأثرت بالتعليم واحتكرته حتى القرن الحادى عشر . ويلوح أن هذا كان
مناسباً لحياة الناس الذين ما كان يهمهم التعليم بقدر اهتمامهم بحياة القتال
والحرب والتدمير .

وثمة مكرمة أسندتها الأديرة للتربية والتعليم جاءت من وحي النظام اليومى
للناس . فقد أعنى بعض النساك من الأعمال العضلية الشاقة وكلفوا عوضاً عنها
بنسخ المخطوطات من الأدبين اليونانى والرومانى القديمة . ويظهر أن أديرة
الراهبات أسهمت بقسط كبيرة فى عمليات النسخ هذه . وبساورنا الشك فى
أمانة النقل ، فتدل شواهد تاريخية على أن الرهبان أفنوا وأزالوا ما تعارض
مع عقيدتهم من كتابات وأقوال .

وإذا كان العرب قد احتفظوا ببعض التراث الأغريرى والرومانى وترجموا
سنه ومزجوا بينه وبين ثقافتهم وغيرها من الثقافات ، ثم انتقل إلى أوروبا
ووصل إلى الأديرة ، فإنها (الأديرة) أبقت على هذا التراث ، بل حوت
خزائن الكتب فيها كنوزاً ثقافية صانها من عبث برايرة الشمال . والظاهر أن
تعاليم كلونى ورد فيها ما بنص على الحنماظ على الكتب ومشيئة إلى ضرورة
أن يكون فى كل دير مكتبة يستمد منها سلاح الحق وتمومات العقيدة .

ويلوح أن عدوى الاهتمام بالكتب وحفظها ، كما سبق أن بينت عن حرص بعض أثرياء وأشرف الأندلس من العرب على اقتنائها ، قد انتقل إلى قلاع الأشراف . فقد أعجب هؤلاء تفاخر الأديرة بما فيها من كتب فزبنوا قلاعهم بمكتبات أضحت منافسة للمؤسسات القديمة في هذا السبيل . واستمرت القلاع والأديرة خزائن للكتب حتى اخترعت الطباعة وانتشرت الجامعات وورثت هذه المهمة .

وإذا كان الرهبان قد اتخذوا من نسخ الكتب مورداً للرزق ، فإنهم انتخبوا إنتاجاً أدبياً عن حياة القديسين ، وقصصاً أخلاقية مختصرة وشرحاً للكتاب المقدس وتاريخ الأديرة ، وغير ذلك من الإنتاج الذي سما بعملهم عن مجرد النقل والنسخ ، فهم الذين كتبوا في الفنون العقلية السبعة الحرة (Sevenliberalarts) (أو ما يطلق عليها الدراسات الأكاديمية) وللفنون السبعة الحرة قصة ، فإن اختفاء بعض العلوم والآداب القديمة ، مع ظهور تفسيرات لما عرف منها وساد العصور الوسطى ، حتم تنظيمها لكي تأخذ الطابع المنهجي للدراسة . ولذلك سادت هذه العصور عبارة « الفنون العقلية السبعة » لتضم جميع العلوم التي كانت معروفة وقتئذ . وقد سبق أفلاطون بأن فرق بين مجموعتين من هذه العلوم ، مجموعة المواد الثلاثة ، والمجموعة الرباعية . والأولى تقوم على دراسة الأدب دراسة بلاغية نحوية ، (القواعد والبيان والنحو) والثانية تهتم بالدراسة العملية ، القائمة على دراسة العلوم الرياضية - الحساب والهندسة - والفلك والموسيقى ، ويذكر منرو (١) . . . وكان مارتيانس كاييلا أحد ممثلي الثقافة الوثنية في شمال أفريقيا ، وقد كتب رسالة (زواج علم اللغة من عطارد) وظلت هذه الرسالة أعظم مرجع تستقى منه المعارف القديمة في النصف الأول من القرون الوسطى . وقد أراد الإله عطارد الزواج ، وحينئذ أخذت السموات التي قال بوجودها الوثنيون ، تتحرك لتقرر أولاً من يتزوج عطارد ، ثم تحتفل باتمام زواجه من أكثر الفتيات ثقافة وهي (الفيلوجيا) أي مادة البحوث

(١) منرو المرجع الأسبق ، ص: ٢٦٦

الأهداف ، فلم تحارب الكنيسة ولم يهمل العقل . ولذلك فقد كان منهاج الدراسة مزيجاً من اللاهوت والفلسفة ... بل هو في الواقع امتزاج بين المعتمدات المسيحية ومنطق أرسطو . فصاغ المنهج المدرسي العتائد اللاهوتية الكبرى صياغة فلسفية كالمشاكل المرتبطة بالقضاء والقدر وحرية الإرادة وعشاء الرب والتثليث وغيرها .

ويلوح أن المعرفة السطحية لبعض جوانب فلسفة أرسطو وأفلاطون جملت مبادئهما على شيء من الوفاق ، ثم بان فيما بعد اختلاف جوهرى فى نظرية المعرفة ، فأفلاطون اعتقد أن الأفكار هى وحدها التى تتكون منها الحقيقة (المذهب الحتمى عند المدرسين الأوثوذكس) وهذه الأفكار موجودة فعلا فى العقل الإلهى . أما ما هو موجود فعلا فإى إلا صور ونماذج وانعكاسات للأفكار الإلهية . ورأى أرسطو أن الأفكار العامة أسماء ، وأن الحقيقة هى الأشياء الموجودة فعلا . كان اختلاف الرأيين ركيزة الحياة العقلية فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

وقد سارت نظم التربية المدرسية على أساس منطق المادة ، لا قدرة المعلمين ، والمنطق المعترف به وقتئذ هو المنطق القياسى . وأدى هذا إلى صب جميع التلاميذ فى قالب واحد ، فكان الطنل — أى طفل — يتعلم بالطريقة التى تناسب عقل الراشد ، ويدرس مثلاً مادة النحر بطريقة المنطقية الدقيقة .

واستمر هذا الاتجاه التربوى سائداً حتى القرن الخامس عشر ، وقد أنتج الكثير من الكتب وأثر فى عقول الدارسين تأثيراً بالغاً . ورآه فلاسفة القرون التالية جديراً بكل محورية وتهم . فتمت تحولت الحركة المدرسية إلى تشكيلات تقف فى سبيل كل تقدم ، بل قد وصفت مؤلفاتهم بأنها نوع رخيص من المعرفة وأن مؤلفيها مجانين قد استسلموا لديكتاتورهم أرسطو ، متفوقين فى أديرتهم بعيداً عن العالم الحتمى ، ومكبلين بمعرفة لا يريدون لها تطويراً ، بل اتهمت مؤلفاتهم بأنها تحوى مجردات عقلية لا قيمة لها صيغت فى أسلوب معتد خشن

مكتظ بالمصطلحات المزعجة . كما تناولت كتبهم ومحاولاتهم مسائل وهمية لا حقائق واقعية .

ومع كل هذا النقد ، فإن لرجال الحركة المدرسية الفضل في هز العقل وإثارة نشاط فكري كان الحمول قد استولى عليه عدة قرون ، بل إن هذه الحركة مهدت لظهور ونمو الجامعات .

سادساً : الجامعات : اشتهرت بعض المدارس الكاتدرائية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر حتى أنها جذبت الطلبة ليدرسوا فيها القانون الروماني وفلسفة أرسطو والطب إلى جانب الدراسات الأكاديمية (الفنون العقلية السبعة الحرة) . بل إن طلبة كانوا يذهبون إلى مدرسة معينة تبعاً لشهرة أستاذ فيها ، مثل أبيلار في باريس . وجاء طلبة من مناطق نائية طالبين العلم ، وقد تكونت من مجموعات من الطلبة وأساتذتهم ما يشبه النقابة وأطلقوا عليها اسم Universitas كما انتظم الطلبة الأغرأب فيما سمي Studiumgeneral . وفي القرن الخامس عشر أصبح اسم الجامعة ومدرسة الطلبة المغتربين صنوان .

وتسبب في ظهور المؤسسات التعليمية الصراع بين المذهبين الواقعي والمثالي ، واحتكاك الأوروبين بالمسلمين والعرب والثقافة الإغريقية . كما أن ظهور المدن قد غير من وجه الحياة وطور المجتمع الذي تعطش إلى تربية تسايهه ، فلم تعد التربية القديمة كافية لسد حاجات هذا المجتمع الذي تغير . وتميزت الجامعات في بداية ظهورها بتلقائية الصلة بين الطلبة وأساتذتهم ، هذه الصلة التي كان قوامها النشاط الفكري والنهم للمعرفة . وربط بين الأساتذة والطلبة عنصر مشترك ألا وهو الفقر . كما أن باب التعليم كان مفتوحاً لكل طالب قادر على دفع مبلغ زهيد جداً للأستاذ على أن يكون ملماً باللغة اللاتينية وهي لغة التعليم . ولم تكن هناك في بداية الأمر شروط للالتحاق سوى ما ذكرته ، كما أن الجامعات كانت في منأى عن سلطة الكنيسة والدولة في فترات نشأتها الأولى (١) .

ثم أغدقت على الجامعات منح ، لعل أهمها المنح البابوية التي أعطت أفرادها حق التجول كعلمين وكطلبة ، وحمايتهم من الاعتداءات عليهم ، وحق محاكمة الطالب أمام مجلس من الجامعة ، وحق هذا استقلال الجامعات عن الدولة والكنيسة ؛ ثم حق الخريجين في التدريس ، وهذا بمثابة شهادة للتخرج ، مع إعفاءات للجامعة وللأساتذة والطلبة من الضرائب والخدمة العسكرية .

ونظمت الجامعات في أول الأمر على أساس أنها تضم طلبة من دول مختلفة ، وكانوا يقسمون داخلها إلى مجموعات حسب الدول (كنظام الأروقة في الأزهر) . وقسم الأساتذة إلى أقسام حسب التخصصات : اللاهوت ، القانون المدني ، الدراسات الأدبية ... الخ ، وكانت الجامعات تعد الطلبة لمهن القانون والطب واللاهوت وللتدريس الجامعي . وكان الطلبة يدرسون أساساً الفنون العقلية الحرة السبعة لمدة تراوح بين أربع وسبع سنوات ويمنح الطالب بعدها درجة الأستاذية (الماجستير) . ثم يصبح الخريج مدرساً جامعياً إذا وجد طلبة يدرس لهم ، أو يلتحق بوظيفة دينية إذا وجدها ، أو يصبح موظفاً إذا واثته الفرصة ، أو يستكمل الخريج دراسته في القانون أو الطب أو اللاهوت التي تمتد نحواً إلى ثماني سنوات ليحصل الطالب على الدكتوراه وتراوحت مدة الدراسة في الطب والقانون بين خمس وثمانى سنوات .

وكان التنافس بين الأساتذة كبيراً ، فدخلهم الوحيد مما يدفعه الطلبة مباشرة لهم . وقد اعتمد الطلبة في معلوماتهم على ما يلقي عليهم داخل الدرس وكانوا يحفظون ما يكتبون على ظهر قلب ، فالكتب نادرة : حتى في تعليم الطب اعتمدوا على معلومات وبعض كتب بسيطة كثيرة منها ما كتبه العرب ، واعتمدت عليه جامعات أوروبا ككولفات ابن سينا وشروح وتعليقات عربية في الطب والعلوم .

ولم يكن الطلبة منزهين عن ارتكاب الأخطاء ، فقد عرفنا عقوبات الفصل والحبس لجرائم كالسرقة وعدم حفظ المواعيد فيدخل الطلبة من النوافذ

بعد غلق الأبواب ، والسحر والتزوير وحمل الخناجر وإحضار نساء خلصة إلى داخل مباني الجامعة . كما حرم عليهم ارتياد الحانات والمسارح واقتناء حيوانات .

وبدأت الجامعات عهودها الأولى بدون أدوات أو أجهزة أو حتى مباني ، فكانت تتخذ من المزارع أو أفنية الكنائس مقاماً . وكان الطلبة الموسرون يعيشون في أماكن لا نفقة مع خدمهم . وعاش الفقراء في أي مأوى يجدونه ، وأحياناً كان يسمح لبعض القادرين للطلبة الفقراء بالسكنى في ردهات أو قاعات سكنهم . ثم ازدادت مكرمات أهل الخير ، ففتحت الجامعات الكتب والمباني للإقامة .

ومع هذا الشح المادى ، فكانت هناك حرية في البحث والقول خاصة وأنها لا تخضع للإشراف المالى من الدولة أو الكنيسة ، ولكن هذه الحرية لم تكن مطلقة ، ولم تستمر فقد تعرضت الجامعات وأساتذتها إلى القوى الرجعية كثيراً ، وحلت عليهم صنوف من التهديد والعقاب .

وعندما يتقدم الطالب في دراسته كان يسمح له بالقاء محاضرات لعدة سنوات ، وكن هذا الطالب يسمى (Bachelor) أى السيد الصغير وهو لقب كان يحمله الفرسان الصغار في خدمة الفرسان الأكابر . وكان يعقد أحياناً امتحان قبل السماح للطالب بالتدريس ، فإذا نجح أصبح حاملاً للدرجة الجامعية الأولى (Bachelordegree) ثم يستعد الطالب لتقديم رسالة للحصول على درجة الأستاذية (Master'sdegree) أو درجة الدكتوراه ، ويدافع عن رسالته أثناء مناقشتها في امتحان عام ، غالباً كان يعقد في الكنيسة ، فإذا نجح في دفاعه لبس قبعة خاصة ، ثم يدعو أصدقاءه إلى وئمة . ويحق له أن يرتدى (روب الماجستير) .

ولم يسمح للإناث بالدراسة الجامعية ، بل لم يسمح لهن حتى بالزيارة . وكان الطلبة الجدد يخضعون (لمقابل) مضحكة يقوم بها القدامى كبرنامج أساسى في محاولة لإدماج الجدد في الحياة الجامعية ،

هذا ، وكان من أوّلى الجامعات في أوروبا جامعة بولونا (حوالى نهاية القرن الحادى عشر) ، وجامعة بادوا ونابلى (القرن الثالث عشر) وجامعة روما (القرن الرابع عشر) . وفى أسبانيا أنشئت جامعات أهمها سلمانكا فى القرن الثالث عشر ؛ كما ازدهرت الجامعات فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأشهرها جامعة باريس . أما الجامعات الإنجليزية فأشهرها أكسفورد فى أوائل القرن الثانى عشر ، ثم كمبردج فى القرن الثالث عشر .

ومما يذكر بالفضل للعرب ، كما أورد ذلك منرو ، أن الجامعات الأوروبية المسيحية استفادت فى مناهجها ودراساتها بما أعطاه العرب فى ميدان الثقافة فقد أخذ الأوروبيون عن العرب مند القرن العاشر أو الحادى عشر الأرقام الحسابية الهندسية التى حلت محل الرموز الرومانية المعقدة . كما أثبت العرب كروية الأرض ، وكانوا يدرسون الجغرافية مستعينين بكرات تمثل كل منها الأرض ، فى الوقت الذى اعتقد مسيحيو أوروبا أن الأرض مسطحة . وقد حول الأوروبيون مراصد العرب إلى مغارات لنواقيس كنائسهم ، ونقلوا عنهم الجبر وعلم الحساب العالى . كما ساهم العرب بقسط وافر فى تقدم علوم الطب والتشريح والصيدلة والفلك ووظائف الأعضاء وأضافوا إليها الشىء الكثير من أبحاثهم التى أصبحت أصول هذه العلوم فى عصرنا الحديث . وفى ميدان الطبيعة شرحوا قوانين انتشار الضوء والجاذبية الشعرية ، كما درسوا بعض الظواهر الجغرافية كالشفق وارتفاع الطبقات العليا ووزن الهواء والجاذبية النوعية للأجسام ، ووضعوا الجداول الفلكية ، وصححوا نظريات الموازاة والانعكاس واخترعوا الساعة ذات البندول ... هذا إلى جانب اكتشافاتهم الجغرافية والبحرية وما أدخلوه إلى أوروبا من مأكولات ونباتات كالأرز والقطن ، وصناعات كالسكر والحرير ، بل إنهم أعاروا أوروبا علوم استخدام البوصلة والبارود والمدفع .

وقد أقبل كثيرون من الأساتذة الأوروبيين على دراسة فلسفة ابن رشد وبخاصة ما كان فيها من شروح لفلسفة أرسطو ، بل أصبحت شروحه هذه من

الأساسيات التي تدرس في جامعات أوروبا ، إلى جانب كتابات ابن سينا .

هذا ، ومع أفول العصور الوسطى وسير الزمن حينئذ إلى عصر النهضة والتنوير ، كانت مراكز الحياة الفكرية قد انتقلت من سلطان الدين إلى أيدي (الدكاترة) وهم جماعات المدرسين خريجي الجامعات . وقد درس هؤلاء الفلسفة والمنطق إلى جانب دراساتهم الدينية .